تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوي

ذكريات يثيرها العبير :

«ونظر إلى السماء نظرة طويلة ، حار فيهـا دمع واضطرب بريق .. واحـة في صحراء ؟ ونبع يتدفق ماؤه ؟ وزهرة ندية بالعطر فواحة بالأرج ؟ كل هذه الأشياء يا رب له ؟ أين كانت وأين كان ؟! . وابتسم للحياة من قلبه ، وأشفق عليها من روحه ، وقبس لها من حبه ، وأصبح إنسانا غير الذي كان»

فاطلي قلبك المكفن بالآثام   وامضي ملعـــونة الآثار
احمليه على يديك كما تحمل أم اللقيط تاج العـار
احمليه كزهرة وطأتها   قدم العـــابثين والفجار
ويك يا هاته الذبابة من أنت ؟   ومن أى حمـــأة أو قرار
أنت جرثومة من الشر جوعى   لامتصاص القلوب والأفكار
أنت مخلوقة حضيضية الأصل(م)   كدود الجـــدران والآبار
أنت شيء أنكرت ذاتيتي فيه (م)   وفيه عرفت معنى انهيـاري
ويك يا هاته وأنت دخان   كيف أطفأت ثورة الأعصار
كيف قاربت هيكلي ثم لم يحرقك ســـيلي ولم تحرقـك ناري
كيف لطخت بالخطيئة عرابى(م)   وقـد كان كعبـة الأطهار
كيف أطبقت مقلتي فلم أبصر طريق الشـــوب بالأوضـار
كيف قيدت في حبالك عنقي   ثم سيرتني بغـير اختيـاري
كيف أذللت كبريائي فهانت   وهي من لم تذل للأقـــدار
آه واحسرتا لمـــا ضاع مني   من سموي وعزتي ووقاري
فاغربي — أغربي بوجهك لا بورك يوم ألقاك خلف جـداري
حسب شيطانك الغوي خضوعي   وأنا الحر — عند ســاق عاري
ويحسبي ندامة ليس تمحوها (م)   ســـلاني وخالد استغفاري

محمد مفتاح الفيتوري

وألقى بالماضي كله في زوايا العدم.. لقد كان يعيش في حاضره ؛ حاضره الذي داعبته رؤى من المستقبل الباسم ، ورقصت على حواشيه أطياف من الأمل الوليد ، وانطلقت في أرجائه صيحة العمر الذي بعث .. هناك حيث ينتظره المجد تدفعه إليه يد حانية ، وقلب يخفق ، وبسمة تشرق ، وروح برح بها الشوق إلى لقاء روح؛ ويا بعد الدنيا التي كانت في قلبه والدنيا التي تراءت لعينيه !

ومضت به الحياة في طريقها تطوى الأيام .. الزهرة الحبيبة يسقيها من فيض عطفه ، والنبع الرقراق يسعى إليه إذا طال ظمؤه ، والواحـة الوارفة تحميه بظلها من لفح الهجير : يا صحراء : أين كانت الجنة ؟ لقد كانت في رحابك وهما بغيضاً لا غناء فيه !

يا صحراء : أين كانت السعادة ؟ لقد كانت في عذابك حلماً مخيفاً لا تأويل له ! وأنت يا زهرته الحبيبة أين كنت ؟ لقد قالت له عيناك إن الجنة ليست وهما ، وإن السعادة ليست حلما ، وإن ماضيه كله يمكن أن يختصر في لحظة من حاضره. . ماضيه الذي أصبح ذكرى في طوايا الغيب ، وومضة في ثنايا الخـاطر ، وصرخة كتمت أنفاسها يد النسيان !

وفي تلك الدار من ذلك الحي كان هواه .. يذهب إليها مع الصبح ، وحين يقبل الليـل ، وكلما هزه الشوق وطال الحنين ؛ ولن ينسى كيف كانت تستقبله الدار يوم كان يقصد إليها : ملء يديه زهر، وملء عينيه أمل ، وملء قلبه حب، وملء نفسه دنيا من الأحلام.. أبداً لن ينسى الوجه الذي كان يتلقاه باليدين حين يقبل ، وبالروح حين يجلس ، وبالدعاء حين ينصرف مودعاً إلى لقاء قريب . ولن ينسى أنها كانت تهوى الأدب ، وتعشق الفن ، وملك عليها الشاعر كل معنى جميل.. ولن ينسى أن صلتها به كانت عن هـذا الطريق الذي جمع بين قلبها وقلبه ، وبين طبعها وطبعه ، وبين شعورها وشعوره . ومن أجل هـذا كله كان يدفع إليها بكل كتاب يقرؤه ، وكل مقال يكتبه ، وكل أثر من آثار الفن يعلم أنه يلقى من نفسها هوى ورعاية .

أبداً لن ينسى يا دار هواه ، يا من كنت وحي قلمه ومهبط إلهامه وحديث أمانيه ... لن ينسى حين غاب عنك أياما ثم ذهب ليرى أهلك في تلك الأمسية التي ينفر من بعدها صباح العيد :

لقد كنت يا دار واجمة، كئيبة، يمرح في جنباتك الصمت ويطبق السكون! أين يا دار من كانت تفتح له الباب وكأنها تفتح له أبواب الشعور بالدنيا على مصاريعها؟ أين ... أين؟ لقد قالوا له إنها مريضة. مريضة؟ وهرع إلى حجرتها مسلوب الوعي مرتاع الخطو ملتاع الضمير، وأخذ مكانه إلى جانبها وتناول يديها بين يديه، وألقى على الوجه الشاحب نظرة سكب فيها من ذوب قلبه كل ما أدخرته الليالي وحفظته الأيام. أما هي .. فلم تنطق بكلمة، لقد أطبقت شفتيها الذابلتين، وشع من عينيها بريق عتاب لونته الدموع!

وأطرق برأسه إلى الأرض برهة، وطوفت نظراته الذاهلة هنا وهناك كأنما تبحث عن الألفاظ الحيرى في ساعة اللقاء.. واستطاع بعد جهد أن يجمع شتات نفسه ليقول لها: لا أدري كيف أعتذر إليك. أحقا كنت غائباً وأنت مريضة؟ كيف بالله لم يحدثني قلبي؟. ألا تغفرين لي؟!

وأمام اللهفة الحرى والخشوع الضارع والصمت المبتهل غفرت له .. ويا لحظة الغفران كم خففت من وخز ضميره، وكم حلت من عبء عذابه، وكم قربت بينه وبين الله!!

ومضى يحدثها وتحدثه، ويا عجبا. لقد عاد إلى الوجه الشاحب إشراقة الفجر، وإلى الوجنة الذابلة نضارة الورد، وإلى النظرة الفاترة صفاء النبع، وإلى الجسد المنهك تدفق العافية! وقالت له وهي تستوي في سريرها جالسة: انظر .. ألا ترى أن العافية قد عادت إلى بعودتك؟ فأجاب والفرحة الجارفة تهز كل ذرة في كيانه: لو كنت أعلم لزرتك قبل اليوم، ولما تركتك نهباً لوادي السقم! ومضى يحدثها وتحدثه، ويقرأ لها وتصغي إليه، ويبني لها من قصور الأوهام ما شاءت فنونه وشجونه. كم أقام على دعائم الخيال عشهما المنتظر؟ عشهما الجميل الهادىء، ذلك الذي يملؤه الأطفال أنساً ومرحا وبهجة، وتملؤه هي حباً وحناناً ورحمة! وتقول له وهي في غمرة الأماني وزحمة الأحلام: بالله دعنا من المستقبل وخلنا في الحاضر .. إن غدا ليوم عيد، فهل فكرت في أن تهيء لنا مكاناً جميلا نقضي يومنا فيه؟! ويقول في صوت تنطلق فيه الهمسة من خلجات روحه: أما العيد فأنا اليوم فيه .. وأما المكان الجميل فقد هيأته لك في قلبي!

وترنو إليه معجبة، ويرتسم على شفتيها ظل ابتسامة فاتنة، وتهتف من الأعماق قائلة له: هل تعرف أنك تجيد فن الحوار؟ لماذا لا تعالج كتابة القصة؟ أنا في انتظار اليوم الذي تكتب فيه قصتك الأولى!

ويعدها بأن يكتب قصته الأولى، ويودعها وتودعه، وينطلق عائداً إلى بيته على أن يراها في صباح العيد. ولم يكن يعلم أن المقادير تدخر له أسود ليلة في رصيد العمر، وأبشع صباح في حساب الشعور! ولم يكن يدرك أن ما رآه من ومضات العافية حين جلس إليها كان أشبه بومضات المصباح قد فرغ زيته، فهو يرسل أسطع أضوائه قبل أن ينطفىء، ويترك الحياة من حوله يختنق فيها النور تحت قبضة الظلام.. لقد طوى الموت في المساء صفحة عمر، وغيب القبر في الصباح أحلام عذراء!!

وسأل نفسه وهو يشهد ليلة تنطوي وفجراً يبزغ: أيمكن أن تمر تلك الليلة على انسان كما مرت عليه؟ وسمع جواب نفسه منبعثاً من أعماقه: محال!

وكانت ليلة عيد.. ولا يذكر أنه أحس الفقر في حياته كما أحسه في تلك الليلة، ولا يذكر أنه أنكر دنياه كما أنكرها في تلك الليلة، ولا يذكر أنه استشعر الوحدة والغربة والفراغ كما استشعرها في تلك الليلة.. لقد كان يشم في كل شيء حوله رائحة الموت؛ الموت الكريه البشع الذي يتراءى للأحياء في الليالي السود، ويلف الآمال في أكفانه، ويهيل على جمال الحياة أكوام التراب!

وأشرقت شمس العيد ترسل ضياءها إلى قلوب الناس إلا قلبه.. لقد بقي وحده في الظلام؛ ظلام الأماني التي ذوت، والفرحة الكبرى التي انطوت، والدنيا التي ذهبت إلى غير معاد. ولأول مرة منذ سنين شعر بدافع قوي إلى البكاء، وحاول أن يبكي ولكنه لم يستطع لقد تجمدت الدموع في عينيه، ثم تحدرت إلى قلبه قطرات: فيها من دفء عاطفته، وفيها من رقدة وجدانه، وفيها من لوعة حرمانه ... وفيها من وهج أساه!

ونظر إلى السماء نظرة من يبحث عن شيء عزيز قد ضاع منه، أو نظرة من يسأل السماء سؤالا لا جواب عنه: أين يا رب يجد

الصبر وينشد السلوة ويلتمس العزاء ؟ كل شيء قد انتهى ، وكل جلد قد انقضى ، وكل زاوية من زوايا النور قد أغلقتها يد الزمن . وهاهو يمضى فى الحياة وحيداً بلا رفيق ، وغريباً بلا حبيب ، وجرحاً تخضبت معالم الطريق من فيض دمه ! »

فقرات من مقال حزين كتبه للرسالة منذ عامين … زهرات تمتد يده إلى حديقة الذكريات لتقطفها فى حنو بالغ … ثم تقدمها إلى قبرها الحبيب تحية وفاء فى يوم عيد !

عامان فى حساب الزمن ، تطمس فيهما يد النسيان من تاريخ كل حى سطوراً وكلمات . أما هو فقصة حياته ماثلة أبداً لعينيه ، يرقب على مسرح الشعور فصولها المتلاحقة .. ويصفق بالجوانح لذلك المشهد المثير الذى هز قلبه فى يوم من الأيام !

كانت قصة عجيبة .. بدأتها هى فكتبت بمداد النبوغ فصلها الأول .. وحين لمح هو بوادر الإلهام أحب أن يقاسمها الخلود فكتب فصلها الثانى .. وحين أوشكت معجزة الخلق فى يد البشر أن تنافس القـــدر ، ضاقت السماء بهذه الألوهية فكتبت فصلها الأخير !!

وتركته وحده يشهد ختام المأساة .. ومنذ ليلتين رآها فى الحلم طيفاً يعاتبه ؛ يعاتبه على أنه لم يف بوعده منذ عامين فى ليلة عيد ! وقالت له فيما قالت : ترى هل نسيت عهد الوفاء ؟ إنك منذ رحلت لم تذكرنى بكلمة .. ولم تذرف على دمعة … ولم تبعث إلى بنفحة عزاء … أتحسب أننى فى العالم الآخر لا أراك ؟! .. وأجابها فى نظرة المتهم البرىء يريد أن يدفع عن نفسه مرارة الاتهام : لقد وفيت بوعدى يا أختاه .. شيعتك إلى المكان الذى قدرلك أن يطوى بين جنباته أول أمل .. وقدمت إليك « من الأعماق » نداء من القلب يؤنس وحشتك فى ظلام القبر .. وكتبت « من وراء الأبد » قصة إنسانة وفت وفيها من سماتك روح وعنوان . أما الدموع فلا تسأل عنها العيون وإنما تسأل القلوب .. وما أصدق دموع الأعماق !

وقالت وهى تشرق بدمعها وترنو إليه فى حنان : لقد كنت أمتحن وفاءك . ترى هل أنت سعيد فى صحبة الأحياء ؟ وأجاب وهو يمد عينيه إلى الأفق البعيد حتى لا تلتقى منهما النظرات : لا أدرى .. فمنذ أخذتك السماء من الأرض وأنا أهرب من السؤال إشفاقاً من الجواب !

وبدأت خيوط الفجر تتسلل من النافذة لتوقظه فى رفق من حلمه القصير .. وهب من نومه ليرى ذراعيه ممدودتين فى الهواء .. تعانقان الفراغ والوحشة والسكون ! وهتف فى صوت لم يسمعه غير الله : يا رب .. هل تأذن لى فى أن أعتب عليك ؟!

اتجاه جديد لتوفيق الحكيم :

« وكم لنا فى بعض الناس من آراء لا ينقصها لتظهر غير عدد من المناسبات » .. هذا ما ختمتم به جزءاً من تعقيباتكم فى العدد (٨٩٧) من الرسالة . وها أنذا أتخذها ذريعة لكى تنشروا رأيكم بصراحة فى مسرحيات توفيق الحكيم التى تنشر فى « أخبار اليوم » من وقت إلى آخر .. وكفى بذلك مناسبة !

وما كنت لأوجه إليكم هذا السؤال إلا لعلمى بأنكم من أصدقاء الأستاذ الحكيم ، ولما عهدناه فيكم — نحن القراء — من حرية فى الرأى وقوة فى القلم ، ومع إنى لا أنكر أن الأستاذ الحكيم من أكبر الكتاب فى مصر إلا أننى قد أحسست ومعى كثير من القراء بما فى مسرحياته المذكورة من السرعة وعدم الاتقان … فإذا أخذنا مسرحيته الأخيرة المنشورة بالعدد (٣٠٥) من « أخبار اليوم » والمسماة « مفتاح النجاح » ، كان ذلك أصدق مثال لما ذكرته عن بعض هذه المسرحيات . فالموضوع كما هو واضح للذى قرأ المسرحية ، ما هو إلا تصوير لبعض أعمال الوزراء بما فيها من استثناءات وما ينتج عن حرية الرأى والصراحة فى المصالح الحكومية ! والمسرحية تكاد تكون جيلة ، إلا أنه قد أقحم فيها بعض الشخصيات التى لا تتصل اتصالا وثيقا بجوهر الموضوع كشخصيتى سميرة ونبيلة … ثم ألا توافقوننى على أن الإطار الذى وضعت فيه المسرحية لم يكن قوى الحبكة ؟ إننى

لا أفهم أن يقحم أى شخص فى سير الحوادث ما لم يكن له تأثير كبر أم صغر ، وإن أومأ الأستاذ الحكيم إلى زيارة سميرة ونبيلة بجملة واحدة قالها الوزير على لسانه ليظهر بعض أعماله وهى : «كان عندى زوار فى موضوع هام » ، حينما قال وكيل الوزارة: « جئت إلى معاليك منذ لحظة فوجدت النور الأحمر على الباب » !

ألم يكن الكاتب الكبير يستطيع أن يظهر هـذا الرأى ولكن بأشخاص لهم صلة وثيقة بالموضوع وتأثير مباشر فى المسرحية ؟ إنى لكبير الأمل فى أن أقرأ على صفحات الرسالة رأيكم فى الأستاذ توفيق الحكيم عامة وفى مسرحيته الأخيرة خاصة .

« مصطفى أ »

قبل أن أعقب على هذه الرسالة أشير إلى أمرين يثيران الدهشة والعجب : أولهما أن الأديب الفاضل يريد أن يسمع رأيى فى الأستاذ توفيق الحكيم ... أين كنت يا أخى وقد كتبت عنه أكثر من عشرين مرة ؟! إنك إذا رجعت إلى أعداد «الرسالة» فسيطالعك عن توفيق الحكيم آراء متعددة طفت بها حول كل الجوانب فى شخصيته الفنية ! أما الأمر الثانى الذى يدهشنى من صاحب هذه الرسالة فهو إخفاء الجزء الأخير من اسمه لسبب غير معلوم ... لماذا آثر أن يختفى وراء هذا الامضاء الذى ظهر أوله وغاب آخره ؟ سؤال يحتاج إلى جواب !

بعد هذا أقول له إن الأستاذ الحكيم فى مسرحيته الأخيرة بعيد كل البعد عما تخيله ورماه به ، وأعنى به السرعة وعدم الاتقان.. الحق أن الأديب الفاضل هو الذى كان متسرعا فى قراءته للمسرحية وفى حكمه عليها من غير تثبت ولا مراجعة ! وأشهد لقد طلبت الأستاذ الحكيم فى التليفون يوم أن ظهرت هذه المسرحية لأهنئه ، ولكننى وجدته متغيبا عن القاهرة ... طلبته لأهنئه على هذا الاتجاه الجديد الذى يسير فيه !

إنه اتجاه سبق أن تحدثت بشأنه إلى الأستاذ الحكيم منذ أن وضع بذرته الأولى فى أول مسرحية قدمها إلى المسرح وأعنى بها مسرحية « اللص » ... لقد عاد توفيق الحكيم منذ هذا التاريخ إلى الحياة المصرية بعد أن غاب عنها فترة طويلة قضاها فى ضيافة الأسطورة التاريخية . عاد إلى هذه الحياة ليسلط عليها أضواء فنه فى كثير من الخبرة الواعية والمراقبة الصادقة .

من حق توفيق الحكيم على النقد الأدبى أن يسجل له هـذا الاتجاه الاجتماعى الجديد ، وأن يهنئه على أن خط السير الفنى فى أعماله الأخيرة كان مستقيما لا انحراف فيه -- هذه كلمات لا أثر فيها للمجاملة التى تكون بين الأصدقاء، لأن صفحات الرسالة قد سجلت لهذا القلم حملات قاسية على فن هذا « الصديق » يوم أن فاحت منه رائحة الجدران المغلقة بعد جولة طويلة فى الهواء الطليق!

وأعود إلى مسرحية « مفتاح النجاح » لأقول للأديب صاحب الإمضاء : إن شخصيتى سميرة ونبيلة لا تقلان فى الوضع الفنى لتصميم المسرحية عن بقية الشخوص ، أعنى أن وجودهما على المسرح أمر لا غنى عنه إذا ما أردنا للواقعية الفنية أن تسير فى طريقها المرسوم -- إنهما شخصيتان غير دخيلتين كما يتوهم الأديب الفاضل ، بل هما أصيلتان فى واقع الفن وواقع الحياة !

لقد ابتلى توفيق الحكيم يوما بداء الوظيفة الحكومية ، ومن وراء المنظار وقعت عينه الفاحصة على كثير من المآسى الخلقية التى صبها عن طريق مسرحيته فى قالبها الفنى الذى يتسع لها ولا يزيد ... وكيل الوزارة المساعد يريد أن يتقرب إلى الوزير بشتى الطرق والأساليب ، وهو فى سبيل هـذا التقرب يطلق كل ما فى جعبته من سهام : السهم الأول هو وضـع زوجته « سميرة » فى خدمة « نبيلة » بنت الوزير ، ولا بأس من أن تكون خادمة فى بيت وزيره تقضى للزوجة والابنة كل ما يحتاجان إليه من أمور ... وتريد العدسة الواعية من وراء هـذه اللقطة البارعة أن توحى إلى القارىء بمدى تأثير هذه الخدمات «المنزلية» فى نفس الوزير ، وما يترتب عليها من خدمات « مصلحية »

ينتظرها الوكيل المساعد ... ومن هنا تظهر القيمة الحقيقية لظهور هاتين الشخصيتين الأنثويتين على مسرح الحوادث لغرض مقصود !

هذا هو السهم الأول، أما السهم الثانى فيستقر فى قلب هذه الحقيقة الثانية التى سجلها توفيق الحكيم، وهى سعى الوكيل المساعد إلى النيل من زميله وكيل الوزارة حين أوحى إلى الوزير بوجوب منح أحد «المحاسيب» ترقية استثنائية، مقدما أرق الأدلة على ما يتمتع به هذا المحسوب من «كفاءة» منقطعة النظير ... وعلى جناح الكيد والدس والوقيعة ينقل إليه أن وكيل الوزارة معترض على منح هذه الترقية لأنها حق غير مشروع، وأنه بهذا الاعتراض المتكرر يعطل أعمال الوزير ويقف فى وجه مشروعاته «الإصلاحية» !

ويبقى السهم الثالث والأخير، وهو جناية الصراحة على أهلها حين يستدعى الوزير وكيله ليستطلع رأيه فى هذا الذى نسب إليه ... ويدور بينهما نقاش طويل يبدؤه الوزير بأنه يحب الصراحة ويقدرها ويضع صاحبها من نفسه فى احب مكان ! وحين يطمئن الوكيل إلى هذا الخلق «الحميد» يجهر برأيه فى شجاعة، وخلاصة هذا الرأى أن «محسوب» الوزير صفر اليدين من كل ما يؤهله للظفر بدرجة ليست من حقه وإنما هى من حق الآخرين ...

وتقديراً لهذه الصراحة يجتمع مجلس الوزراء لينظر فى شكوى الوزير من أن وكيله يعطل أعمال الوزارة حتى ليستحيل معه كل تعاون منشود ... ويحال الوكيل الأصيل إلى المعاش ليظفر الوكيل المساعد بمنصبه، والفضل فى هذه الخدمة «المصلحية» إلى ما سبقها من خدمات «منزلية» توضع فى المقام الأول من قيم المواهب والحسنات !!

حول مشكلة الفن والقيود:

فى العدد الماضى من الرسالة قرأت كلمة للاستاذ الفاضل على محمد سرطاوى يرد بها على رأى سابق لى حول مشكلة القيود فى الفن ... ولقد رأى الأستاذ أن يخالفنى فى بعض وجهات نظر لم تتضح له كل الوضوح، فراح يعدد مظاهر الاختلاف بين نظرتين تذهب كل منهما فى فهم مشكلات الفن إلى طريق !

أود قبل أن أعقب على كلمة الأستاذ الفاضل فى العدد المقبل من الرسالة، أن أبعث إليه بأخلص الشكر على تحيته الرقيقة التى وجهها إلى فى ختام كلمته، هذه التحية التى يسطرها الخلق ويزجيها الوفاء

أنور المعداوى

من الأدب الفرنسى
للأستاذ أحمد حسن الزيات
مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة
عن نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها
الثمن ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد